الحدود المفاهيمية للمصطلح النقدي السوسيولوجي
من الإيديولوجيا إلى رؤية العالم

The conceptual Limits for the Sociological and critical Term.

From Ideology to a World vision.

سليم بركان

جامعة سطيف 2

الجزائر

تندرج هذه الدراسة الموسومة بـ: الحدود المفاهيمية للمصطلح النقدي السوسيولوجي ضمن مجال النقد الأدبي السوسيولوجي، ذلك أنه سنتتبع دورة حياة مصطلح: "إيديولوجيا" بدءا من مدلوله الفكري وصولا إلى مدلوله النقدي السوسيولوجي بحيث عُرِفَ فيما بعد بـ: "رؤية العالم" ومن ثم فقد اكتسى مصطلح "إيديولوجيا" إطارا نقديا سوسيولوجيا ضمن منهجية لوسيان غولدمان وعرف بـ"رؤية العالم" وهذا ما اعتبره "عبد الله العروي" من أن منطلق تكوينية المصطلح تحيل على تحوله الفكري إلى النقدي السوسيولوجي.

الكلمات المفاتيح:إيديولوجيا، رؤية العالم، تكوينية، نقد سوسيولوجي.

La présente étude intitulée "Les limites conceptuelles du terme sociocritique" s'inscrit dans le cadre de la critique socio-littéraire. On dépistera le cycle de vie du terme " Idiologie" depuis sa signification intellectuelle à celle de la sociocritique، ce qui a été connu plus tard par " la vision du monde" d'où le terme " Idiologie "s'est revêtu d'un aspect sociocritique dans le cadre de la Méthode Goldman connue par " vision du monde"، chose approuvée par Laroui du fait que la genèse du terme réfère à sa transformation d'une portée intellectuelle vers une portée sociocritique.

Mots Clés : Idiologie، vision du monde، genèse، sociocritique.

Summary:

This study ،titled as The Conceptual Limits for the Sociological and Critical Term، is a part of Literary Sociological Critic; as we will study the development of the term Ideology ،starting with its intellectual meaning ،and arriving to its sociological and critical meaning.Noting that it is later known as the World Vision. By that، the term Ideology has acquired a sociological and critical feature in the Goldman method known as the World Vision which is confirmed by Elarawi because the genesisof the term shows the transfer from An intellectual term to a sociological and critical one

Key words:Ideology، World vision، Genesis، Sociological Critic

المقال

يسجل الباحث ضمن مسار الحركة النقدية الجزائرية ، ذلك الإحتشام النقدي في مجال الدراسات المصطلحية - علم المصطلح Terminologie- وهذا باستثناء بعض الكتابات و المقالات المتناثرة هنا و هناك كالتي نجدها عند كل من الدكتور عبد الحميد بورايو، الدكتور رشيد بن مالك و الأستاذ السعيد بوطاجين وغيرهم ، لكن ما يلاحظ على هذه الكتابات النقدية أنها لم تعتمد خطة منهجية واضحة المعالم في كيفية معالجتها لطرق وطرائق دراسة المصطلح النقدي الأدبي، فهي إشارات عامة للمصطلح أكثر منها متخصصة، فعلى الرغم من إدراك الباحثين للأهمية المعرفية و النقدية لهذا الفرع من الدراسة اللسانية، خاصة في تحديد الأصول المعرفية و الثقافية و الاجتماعية و كذا الدلالية و الترجمية و المفهومية لاستعمال المصطلح إلا أن الفوضى المصطلحية و الترجمية فرضت نفسها بقوة في بعض الكتابات النقدية الأدبية، فهل مرد هذا الاضطراب الترجمي و المصطلحي إلى عدم استيعاب القواعد النظرية و المنهجية في تداول المصطلح ؟ أم أن البحث في هذا الفرع من الدراسة مازال حديث النشأة؟ وإذا كان كذلك فهل يمكننا القول أن تداولية المصطلح النقدي بين البحاثة تعني أن المصطلح سليم وبعيد عن تلك الفوضى المفهومية و الترجمية ؟ هذه الأسئلة و غيرها سنحاول مناقشتها ضمن دائرة تحليلنا لاشكالية ترجمية و مفهومية مصطلح إيديولوجيا بين المفكرين و النقاد.

لعل الاهتمام بعلم المصطلح تنظيرا و تطبيقا يمنح الناقد مشروعية الممارسة النقدية الموضوعية، ذلك أن البحث في الأصول المعرفية و الثقافية للمصطلح تجعل من الكتابة النقدية أكثر فعالية، فكما هو متعارف عليه أن المصطلح لا يقوم من فراغ و إنما له مرجعياته الثقافية و الحضارية و المعرفية ، فهو يقوم في الغالب بترميم بقايا بعض الكلمات و تكملة ما ينقصها حتى تصبح قابلة للتداول و الاستعمال بين النقاد، إذا فالرجوع إلى تكوينية المصطلح تمنح الناقد حق ممارسة نقد بناء و فعال، وعلى الأهمية التكوينية المعرفية للمصطلح يشير صراحة الدكتور عبد السلام المسدي إلى أن :

" مفاتيح العلوم مصطلحاتها، و مصطلحات العلوم ثمارها القصوى، فهي مجمع حقائقها المعرفية و عنوان ما به يميز كل واحد منه عما سواه، وليس من مسلك يتوسل به الإنسان إلى منطق العلم غير ألفاظه الاصطلاحية، حتى لكأنها تقوم من كل علم مقام جهاز من الدوال ..."[1] ، بل و يذهب إلى أكثر من ذلك إلى أن تكوينية المصطلح مهما كان جنسها و نوعها فهي تعتمد في تميز بناء دلالته ومفهوميته على تلك المواضعة العلمية بين البحاثة، كأسلوب للتداول و الاستعمال للمصطلح، بعبارة أخرى أن هذه المواضعة تتضاعف أكثر فأكثر وبشكل مكثف حين يدخل المصطلح دائرة التداول و الاستعمال النقديين بين الدارسين، هذا ما يعطي للمصطلح حضورا علميا متميزا و موضوعية دقيقة ، كما يجعل وظيفته في الخطاب النقدي فعالة، وفي هذا السياق تتحدد وظيفة المصطلحية عبر مستويات مختلفة باعتبارها تلك : " الدراسة الميدانية لتسمية المفاهيم التي تنتمي إلى ميادين مختصة من النشاط البشري باعتبار وظيفتها الاجتماعية و يشمل علم المصطلح من جهة على وضع نظرية و منهجية لدراسة مجموعات المصطلحات و تطورها ، ويشمل من جهة أخرى على جميع المعلومات المصطلحية ومعاملتها ، وكذلك على تقييسها عند الاقتضاء سواء كانت هذه المعلومات أحادية اللغة أو متعددتها ..."[2] بمعنى أن وظيفة المصطلحية تتنوع بتنوع الحقول التي تلجها، فقد تكون فكرية كما قد تكون سوسيولوجية أو أدبية، أي أن الدلالة المفهومية للمصطلح تكون مقترنة أكثر بمختلف الأنشطة التي يمارسها الإنسان ومن جهة أخرى هي نظرية في المعرفة و منهجية علمية تهتم بالوظائف المفهومية و الترجمية للمصطلح إضافة إلى اهتمامها بالأساليب الترجمية و للطرائق التداولية التي يعتمد عليها الدارس في معالجة المصطلحات سواء أكانت فلسفية أم أدبية، وهي وفق ذلك تبحث في أهم علاقات التداخل بين المفاهيم التي تملكها الكلمات هذا ما جعل الاهتمام بهذا الفرع من الدراسة ضروري للممارسة النقدية، لأنه يمنحها نشاطا فعالا و منتجا و ارتقاءا نوعيا في الكتابة، وفي هذا السياق سنحاول- كما قلت- معاينة إشكالية فوضى مصطلح إيديولوجيا بدءا من المفهوم الجيني و وصولا إلى المفهوم السوسيونقدي، بمعنى آخر من فلسفة الايديولوجيا إلى سوسيولوجيا الايديولوجيا.

1 - عن تاريخية المصطلح: الإيديولوجيا :

ظهر مصطلح ايديولوجيا أول مرة في بعض كتابات "ديستوت دوتراسي" سنة 1802 (3) ، ثم استعمله بعد ذلك "نابوليون" حين أطلق على أعضاء أكاديمية العلوم الأخلاقية و السياسية اسم "الإيديولوجيين" ، و أصل هذه الكلمة إغريقي ، ينقسم جذرها اللغوي إلى قسمين : IDIO : و تعني الفكر ، و LOGIE : و تعني العلم ، بمعنى "علم الأفكار" ، هذا الذي استحدثه دوتراسي كفرع علمي جديد يهتم بدراسة الأفكار البشرية دراسة علمية و موضوعية بعيدة عن كل أنواع الخيال و العواطف ، بمعنى تخليص الفكر البشري من جميع الأوهام التي تطبع حركيته و ذلك بتفكيك الأفكار المركبة لإظهار دلالتها الحقيقية ، و من ثم يسهل فهمها و استعمالها بشكل بسيط و واضح بين أفراد الجماعة البشرية.

لعلّ هذا الإهتمام بهذا الفرع من الدراسة الفكروية من طرف "دوتراسي" ، له علاقة فأعطى للمصطلح مشروعية الدراسة و من ثم التداول و الإنتشار بين المفكرين و الباحثين ، الذين اعتبروه :" نسقا من الآراء و الأفكار السياسية و القانونية و الاخلاقية و الجمالية و الدينية و الفلسفية "(4) ، بمعنى أن حضورها ضروري ضمن أنظمة الفكر البشرية المختلفة السياسية و الاجتماعية و الإقتصادية ، تجعل هذه الأنساق من التمثلات ذات المستويات المختلفة تمثل الإيديولوجيا ، و هي فوق ذلك يأخذ مدلولها عدة أشكال من الدلالة ضمن مسار الحركة التاريخية و الاجتماعية للتفكير الفلسفي و النقدي.

I - المدلول الماركسي للايديولوجيا :يعد " كارل ماركس " أول من استعمل مصطلح ايديولوجيا في مجال "علم الإجتماع" ، و قد تجسد ذلك من خلال مقال له بعنوان :" الإيديولوجيا و الطبقات" ، و قد كان يعني به تلك المنظومة الفكرية التي تتميز بها جماعة بشرية عن أخرى ، و التي تعتمد في تحليلها للواقع على تلك الأفكار النظرية المشبعة بالأوهام و المتسمة بالسلبية ، و التي لا تنفصل عن الواقع ، بل و يعتمد تحليلها على الحتمية الاجتماعية و التاريخية للفعل الفكري الاجتماعي ، هذا ما جعل " ماركس " ينظر للايديولوجيا كـ**وعي زائف** و خاطىء تتميز به طبقة اجتماعية عن أخرى ، خاصة من حيث رؤيتها للواقع الممكن ، بمعنى آخر أن الإيديولوجيا تظهر كممارسات فكرية سلبية ضمن دائرة الفعل الاجتماعي ، إنها ظاهرة اجتماعية و هي فوق ذلك مشروطة بحركة تاريخية و اجتماعية ، هذا ما يجعل عملية : " إنتاج الأفكار و المفاهيم و الوعي تتداخل تداخلا مباشرا مع العلاقات المادية للإنسان ... بل و تبدأ من الإنسان في نشاطه الفعلي "(5) ، بمعنى أن عملية إنتاج الأفكار في المجتمع تكون مشروطة أو في علاقة مباشرة بالحركة التاريخية و الاجتماعية للفعل الاجتماعي ، هذا الأخير يفرز بدوره وعيا سواء كان إيجابيا أو سلبيا ، فالأول لا يعرف الثبات و السكون ؛ إنه وعي يتسم بالدينامية ، أما الثاني فهو وعي زائف و خاطىء و سلبي مملوء بالأوهام و الأكاذيب ، هذا ما جعل "ماركس" ينظر للإيديولوجيا على أنها :" إنعكاس مقلوب و مشوه و جزئي و مبتور الواقع ، و هي بذلك تعارض الوعي الإنساني الحقيقي"(6) ، إذا فمدلول الإيديولوجيا وفق المنظور الماركسي يتمثل في تلك العملية الفكروية التي يمارسها الإنسان بوعي زائف .

في مقابل هذا التصور لمدلول الايديولوجيا ، يرى المفكر "لوي ألتوسير" أن الإيديولوجيا تمثل تلك البنية الجوهرية الفعالة في المجتمع ، و انطلق في تبريره لذلك من خلال الدور الذي تلعبه الطبقات الاجتماعية في إنتاج الأفكار ، و علاقة هذه الأخيرة بالمجتمع ، ففي مقال له بعنوان : " الأجهزة الإيديولوجية للدولة" ينطلق من مسلمة "ماركس" التي مفادها : أن وعي الأفراد بظروف وجودهم هو الذي يحدد أشكال واعية ، و من ثم بنية فكرهم ، و التي تتسم في أحايين كثيرة بالإيجابية و بعيدة عن تلك الخيالات و الأوهام ، و من هنا تتحدد الإيديولوجيا وفق رأي ألتوسير بأنها :" ليست شذوذا أو شيئا زائد في التاريخ ، إنها بنية جوهرية أساسية بالنسبة للحياة التاريخية للمجتمعات و إن وجودها و الاعتراف بضرورتها وسيلة واعية فعالة في التاريخ " (7) ، بمعنى أن للإيديولوجيا تاريخا اجتماعيا يضمن لها حضورها و تماسك بنيتها في المجتمع ، إضافة إلى أن أشكال الوعي التي تفرزها تحدد من خلال إدراك الأفراد للميكانيزمات الحقيقية التي تتحكم في ظروف وجودهم . و من هنا تأخذ الإيديولوجيا شكل بنية جوهرية فعالة في المجتمع ، بعيدة عن تلك الأوهام و الخيالات ، و لا تنطلق من غيبيات و أكاذيب ، بل تمثل وجودا ماديا و وجودا خياليا ، فالأول يتمثل من خلال تلك الصلات القائمة بين مجال الأفكار و

ارتسامها في الواقع الذي يتحرك ضمنه الأفراد ، و الثاني يتحدد عبر تلك العلاقات (الخيالية) الوهمية القائمة بين الأفراد في المجتمع.

II- المدلول السوسيولوجي للإيديولوجيا :

يندرج ضمن هذا المنظور السوسيولوجي للإيديولوجيا، و الذي يتحدد انطلاقا من خلال البنية الفكرية التي تتحكم في توجيه مختلف الأنظمة السياسية و القانونية و الفكرية للمجتمع، هذه الأبنية تفرز بدورها وعيا جماعيا يتمثل في "رؤية العالم" تستجيب لتطلعات الطبقة الاجتماعية في المجتمع الواحد ، و عبرها يتحدد النظام الفكري العام للطبقة الاجتماعية. و إذا كانت الإيديولوجيا ظاهرة اجتماعية فهي مصاحبة و ملازمة للمجتمع و خاضعة للشروط الاجتماعية و المجتمعية ، بمعنى آخر أنها تابعة للعامل الاجتماعي و تظهر على شكل ممارسات فكرية في المجتمع ، هذا ما جعل المشتغلين في حقل علم اجتماع المعرفة ، ينظرون إليها كوقائع اجتماعية : "ينبغى دراسة ماضيها و نشأتها و تطورها ، ثم محاولة تقنين القوانين التي تتحكم في مسارها ، على اعتبار الإيديولوجيات ى ظواهر خاضعة للشروط الاجتماعية " [8].

إن اجتماعية المعرفة قد تفرعت عن "كارل مانهايم " عن نظرية مختصة في دراسة الايديولوجيا ، باعتبارها ظاهرة اجتماعية في المقام الأول ، كما أن حضورها فيه مشروط بحتمية اجتماعية و تاريخية ، هذا ما يجعلها قابلة للدرس و التحليل العلميين ، بحيث أن دراستها تعني تخليص الفكر البشرى من جميع الأوهام و الخيالات الفكرية ، و من ثم تأخذ مسار "الرؤية الكونية" للطبقة الاجتماعية ، هذا ما يجعلها تأخذ مدلولا اجتماعيا و تاريخيا يقترب إلى حد ما من مقولة "غولدمان" "رؤية العالم" ، فإذا اعتبرنا أن هذه الرؤية مرتبطة بطبقة اجتماعية سائدة (إيديولوجيا سائدة) ، فإن الطبقة المضادة أو المسودة تحمل أفكار إيديولوجيا مضادة ، بمعنى أنها حاملة لـ "رؤية كونية".

و في السياق نفسه يقسم "مانهايم" في كتابه "الايديولوجيا واليوتونيا" الأفكار الاجتماعية إلى قسمين : أفكارا إيديولوجية و أفكار طوباوية . فالأولى تمثلها طبقات قيادية ، تمارس سلطتها الفكرية المطلقة مع محاولاتها الحفاظ على الأوضاع الاجتماعية السائدة ، و في هذا يقول "مانهايم" :"أما و الحالة الفكرية الايديولوجية ، فتبقى فعالة في تحقيق الأوضاع القائمة و المحافظة عليها "[9]. أما الثانية فتمثلها طبقات مسودة أو مسحوقة تحاول تمثل رؤية كونية مضادة للقيادية . و في هذا يقول كذلك:"و لا نعتبرها كذلك إلا إذا نزعت نحو تحطيم الأوضاع القائمة و المسيطرة في هذا العهد تحطيما جزئيا أو كليا" [10] ، معنى هذا أنه لمجرد اعتلاء الطبقات المحكومة "المسحوقة" ممارسة السلطة يصبح نظام فكرها يأخذ شكل إيديولوجية ، فتسعى بذلك إلى الحفاظ على سلطتها و مكانتها الاجتماعية لتكون كذلك ، و بالمقابل تظهر أفكار طوباوية (رؤية للعالم) تمثلها طبقات اجتماعية مسحوقة تسعى للوصول إلى ممارسة نظام فكرها الذي يأخذ شكل رؤية كونية مضادة ، تتطلع إلى تجسيد فعل أفكارها في المجتمع ، إذا فمفهوم :"الفكر الطوباوي يرجع إلى الاكتشاف المعارض المتعلق بالصراع السياسي ... و هي مهتمة بتهديم و تحويل بعض الظروف الموجودة في مجتمع ما"[11] ، بمعنى آخر أن كل طوبى تحمل أو تشكل رؤية كونية في المجتمع لها نظام فكري تتطلع من خلاله إلى ممارسة فعل أفكارها .

ما نستشفه من تحليلات "مانهايم" ، ذلك المدلول السوسيولوجي للإيديولوجيا الذي يتجلى من خلال فكرة التطلع و من ثم إلى فعل التغيير الذي يعني إشراف رؤية للعالم ، التي تعتمد عليها الطبقة الاجتماعية في ممارسة فعل التغيير عبر رؤية كونية تكون مجسدة واقعيا عبر الوعي الجماعي الذي تتمتع به الطبقة السائدة أم المسودة .

على الرغم من عدم استعمال مفاهيم للمدلول المفهومي الذي يتجاوز الإيديولوجيا إلى رؤية العالم ، فإن "لويسان غولدمان" يطرح تصورا مفهوميا لمدلول الايديولوجيا كـ "رؤية العالم " ، مع التمييز بينهما بحدود فاصلة و متقاربة إلى حد ما ، و ما ينبغي أن نشير إليه أن "غولدمان" لم يعطي مفهوما واضحا و

صريحا للاديولوجيا ، هذا ما يجعلنا نعتقد أن مدلول الايديولوجيا يقترب إلى حد ما من مفهوم رؤية العالم ، فمن زاوية فهم "غولدمان" يعني بها ذلك :"العنصر الأساسي الملموس للظاهرة التي يصفها علماء الاجتماع منذ عشرات السنين بمصطلح الايديولوجيا"[12] و بالمقابل فإن مفهوم الرؤية للعالم ـ في نظره ـ يمثل : " مجموعة التطلعات و المشاعر و الأفكار التي تجمع بين أعضاء جماعة ما ـ و غالبا ما تكون هذه الجماعة فئة اجتماعية ـ و هذه الجماعة تقف مع تعارض الجماعات الأخرى "[13] إذا فالتركيز على مفهوم الوعي الجماعي ، الذي يشترك فيه كل من مفهومي الإيديولوجيا و رؤية العالم يقربنا من تجسيد فكرة التماثل ، و التي رفضها "غولدمان" في أحايين كثيرة ، بمعنى أنه حاول تغييب هذا المصطلح عن الأعمال الأدبية ، إلا أنه على مستوى دائرة الفعل الاجتماعي نجده يماثل بينهما ضمنيا ، فكلاهما يعتمد على ذلك الوعي الجماعي الممتاز الذي تعتمده الطبقة الاجتماعية في ممارسة نظام أفكارها على المجتمع .

بتجاوز غولدمان للإيديولوجيا إلى رؤية العالم ، يعني أنه ألغى فعل الإيديولوجيا من دائرة الفعل الاجتماعي بإعتبارها إنتاجا لوعي فردي ذاتي محدود الرؤية و ساذج إلى حد ما ، في حين أن رؤية العالم هي إنتاج لوعي جماعي ممتاز يتجاوز الفردية و الذاتية المفرطة . و في هذا يقول غولدمان : " فالوعي الجماعي لا يكون حاضرا إلا انطلاقا من الوعي الفردي "[14] ، هذا ما يعني أن الايديولوجيا نظام فكري قبلي يندرج ضمن المسار المفاهيمي لمدلول رؤية العالم بمعنى آخر أنهما يشتركان في تمثل ذلك الوعي الجماعي الممتاز الذي تتمتع به الطبقة الاجتماعية في رسم أفق رؤيتها للعالم ، التي تأخذ بجوانب الحياة الفكرية و المادية في تجسيد نظام فكري راقي و تمثل تلك التطلعات و الأفكار على شكل ممارسة فعلية على الأنظمة المختلفة للمجتمع ، هذا ما يجعل الإيديولوجيا تفرز رؤى فكرية جزئية و محدودة إلى حد ما على غرار الرؤية للعالم التي تفرز وعيا ممتازا و فعالا على المجتمع و متجاوزة فوق ذلك تلك الفردية و الذاتية التي ترسمها الطبقة عن نفسها.

نخلص من خلال هذه المقارنة المفاهيمية بين الإيديولوجيا و رؤية العالم ، إلى أن "غولدمان" يستبعد فكرة التماثل بينهما ، على الرغم من تقاربهما و تماثلهما ضمنيا ، خاصة على مستوى الفعل الاجتماعي . لكن الإعتماد على فكرة فعل التطلع ، و على مفهوم الوعي الجماعي الممتاز ، يجعلنا نعتقد مرة أخرى أن الإيديولوجيا هي امتداد مفاهيمي لمدلول رؤية العالم ، خاصة في مجال ممارسة الفعل الاجتماعي ، و تأكيدا على فكرة التماثل بينهما يقول "أنطونيو غراشي" :" إن الإيديولوجيا هي تصور للعالم يتجلى ضمنيا في الفن و القانون ، و في جميع ظاهرات الحياة الفردية و الاجتماعية" [15] . هذا ما يشير إلى أن إيديولوجية المبدع تتجلى في العملية الإبداعية وفق رؤية فكرية أو إيديولوجيا ممتازة تأخذ شكل رؤية للعالم ، هذا ما جعل "غولدمان" يغيب الإيديولوجيا في دائرة الفن ، و يماثلها بمقولة "رؤية العالم" ، و في سياق الفصل بينهما نجده في مواضع كثيرة يماثل بينهما و هذا ما أقره "حميد لحميداني" من خلال قوله : " على الرغم من كل المحاولات للتمييز بين الإيديولوجيا و رؤية العالم ، فإنه لا يمكن الإدعاء بأن الرؤية للعالم هي تصور كامل للواقع الذي ظهرت فيه ، لأنها مهما بلغت قدرتها على استعاب مختلف التصورات المتعايشة في المجتمع ، فإن قيمتها في نهاية الأمر ستبقى مختصرة في التصور الحضاري للمجتمع الذي نشأت فيه و هي لذلك تبقى ذات طابع نسبي"[16] ، ذلك أنه اذا تتبعنا الأطر المفاهيمية للايديولوجيا وكذا لمساراتها الفكرية داخل الطبقة الاجتماعية نجدها (نلمسها) قاصرة عن تكوين رؤية كاملة و شاملة للواقع ، فهذا الأخير يتجاوزها من خلال تلك الحركية التي يتسم بها الفعل الاجتماعي ، فكذلك رؤية العالم ، فعلى الرغم من اتسامها بالشمولية و الموضوعية إلا أنها تبقى عاجزة إلى حدّ ما في احتواء الواقع ؛ لأنها تبقى **حبيسة لعبقرية كبيرة** تتجاوز الواقع و تحتويه في كل أبعاده مما يجعلها نسبية في تطورها للواقع بمعنى آخر أن كليهما نسبي في تصور رؤية كاملة للواقع هذا ما يجعلنا نعتقد أن مفهوم الايديولوجيا يقترب الى حد ما من مدلول رؤية العالم، هذا ما يعني أن المماثلة بينهما ممكنة و محتملة خاصة في مجال ممارسة الفعل الاجتماعي.

و يندرج ضمن هذا السياق المفاهيمي من رؤية العالم ذلك المفهوم الشمولي للإيديولوجيا الذي عقده "عبد الله العروي" من خلال كتابة "مفهوم الإيديولوجيا" ، ففي محاولة له في تحديد الاستعمالات المصطلحية و الوظيفية المختلفة لمدلول مصطلح ايديولوجيا ، هذا الأخير الذي يماثله "العروي" بكلمة "أدلوجة" ، هذا ما يعني أنه يستعمل الكلمة "أدلوجة" لا المدلول العام للإيديولوجيا ، فهي على حد قوله: "منظومة كلامية سجالية تحاول رغبة ما ان تحقق بواسطتها قيمة ما : باستعمال السلطة داخل مجتمع معين "[17] ، ذلك أنها تمثل ذلك النظام الفكري السجالي (الجدلي) ، الذي تعتمده الطبقة الاجتماعية كوسيط من أجل تمرير أفكارها ، و من ثم الوصول إلى ممارسة فعل أفكارها في المجتمع و منافسة لها ، و من هنا تتحقق رغباتها وكذا قيمها التي تظهر على شكل ايديولوجية موسومة باسمها.

و ما ينبغي أن نشير إليه ، أن الإيديولوجيا تتنوع معانيها مع "العروي" ، إذ تضهر في :"معنى القناع السياسي و في معنى رؤية كونية ، و في معنى معرفة الضواهر" [18] ، هذا ما يعني أن الإيديولوجيا تتنوع مفاهيمها و معانيها فهي تأخذ شكل أنظمة مختلفة تظهر وفق "أدلوجات" تكون حاملة لنظام فكري جزئي متضمن في الإيديولوجيا ، فهذه الأنظمة الفكرية الجزئية حسب تقسيم العروي ثلاثة أنواع و هي :

- **الإيديولوجيا / قناع سياسي** : فهي ذلك النظام الفكري الذي له علاقة بالنظام السياسي خاصة الحزبي منه، هدفه كسب أكبر عدد من الأنصار مع إخفاء مصالحها الحقيقية بالنسبة لخصومها ، و مع كشف الحقائق لمعتنقيها بمعنى آخر أنها تخفي حقيقة أفكارها لتمرير مصالحها الحقيقية ، و في السياق نفسه يقول العلوي :"إنها نظام من الأفكار تتضمن تقريرات و أحكاما ما حول المجتمع ، و عن مصلحة تهدف إلى إنجاز عمل معين و تقود إلى نظرية نسبية فيما يتعلق بالقيم"[19].

- **الإيديولوجيا / رؤية كونية :** بمعنى أنها ذلك النظام الفكرى : "الذى يحتوى على مجموعة من المقولات و الأحكام حول الكون ، تستعمل في اجتماعات الثقافة لإدراك دور من أدوار التاريخ ، و تقود إلى فكر يحكم على كل ظاهرة إنسانية بالرجوع إلى التاريخ كقصد يتحقق عبر الزمن ."[20] ، هذا ما يشير إلى أنها تمثل ذلك النسق الفكرى الممتاز ، الذي يحمل رؤية فعالة تستجيب لتطلعات و أفكار الطبقة الاجتماعية ضمن الصيرورة التاريخية ، إنها نظرة مشروطة بحركية تاريخية و إجتماعية ، فهي عكس السياسة المشبعة بالنظرة الضيقة و الذاتية . و على العموم فإن هذا النمط من الايديولوجيا بعيد عن أي توجه سياسي ، و هي فوق ذلك إيديولوجيا ممتازة :" ... إستعملها الفلاسفة كـ "هجيل " و "لوسيان غولدمان "" بوجه خاص ، حيث تعني منظومة فكرية تعبر على الروح التى تحفز حقبة تاريخية ... و كخطة واعية بذاتها "[21] ، بمعنى أن الرؤية الكونية تمثل ذلك النظام الفكرى الرفيع و الممتاز الذي تمارسه الطبقة الاجتماعية و الذي يعبر عن تطلعاتها و آفاقها المستقبلية الحقيقة .

- **الايديولوجيا / نسق إبستيمولوجي :** فهي تمثل ذلك النسق الفكري المعرفي العلمي الذي يسعى إلى :" معرفة الظواهر الآنية و الجزئية ، مجاله نظرية المعرفية و نظرية الكائن " [22] . بمعنى أنه نمط فكرى علمي معرفي مهمته دراسة و البحث في ماهية الكون و الكائن على السواء . كما أن هدفها من وراء ذلك هو تخليص الفكر البشرى من جميع تلك الأوهام و الأكاذيب التي تصاحبه ، و هي تعتمد في ذلك على منهجية علمية من تحليل الظواهر الفكرية و المادية للمجتمع .

و مما سبق ذكره، يمكن أن نسوغ المعادلة السوسيوإيديولوجية ، بحيث إذا كانت الإيديولوجيا حاملة لرؤى طبقية و براغماتية فهي تأخذ شكل قناع ذي توجه سياسي . أما إذا كان نظام أفكارها يحمل وعيا جماعيا ممتازا فهي تأخذ شكل رؤية للعالم . أما إذا كان نظام أفكارها علميا و موضوعيا و هادفا للتحليل العلمي و المعرفي للكون و الكائن فإنها تأخذ شكل نسق معرفي إبستيمولوجى .

هكذا يبدو أن مفاهيم و معاني الايديولوجيا متعددة و متنوعة و متباينة بين المفكرين و الدارسين ، و هذا ما حاولنا مناقشته من خلال هذه المداخلة ، بحيث سعينا إلى تتبع أهم الأطر المفاهيمية و المصطلحية

للايـديولوجيا ، بـدء ا مـن المـدلول الماركسـي الـذي يعتبرهـا كـوعي زائـف ، و وصـولا إلـى المـدلول السيولوجي الذي يعتبرها كرؤية للعالم ، و بين هذا و ذاك تبقى الايديولوجيا ضمن حقل الدراسات النقدية المعاصرة تبحث عن مفهوم سيميولوجي باعتبارها تمثل علامة سيميائية في النص الأدبي .

هوامش الدراسة:

1. عبد السلام المسدي.قاموس اللسانيات. الدار العربية للكتاب. تونس.1984 .ص:11.
2. أنظر. القاسمي علي . مقدمة في علم المصطلح. وزارة الثقافة و الاعلام. بغداد.1985 ص:217.
3. مجموعة من المؤلفين . الإيديولوجيا . دفاتر فلسفية . ترجمة : محمد سبيلا و عبد السلام بن عبد العالي . دار طوبقال . ط1 . المغرب : 1999. ص : 40.
4. روزونتال م. يودين ي. . الموسوعة الفلسفية. ترجمة : سمير كرم . دار الطليعة . ط1. ، بيروت : 1974. ص : 526.
5. تيري إيجليتون . الماركسية و النقد الأدبي . ترجمة : جابر عصفور . دار قرطبة للطباعة و النشر . ط1. الدار البيضاء : 1989. ص : 13.
6. مجموعة من المؤلفين . دفاتر فلسفية . المرجع السابق . ص : 20.
7. المرجع نفسه . ص : 46.
8. قباري محمد إسماعيل . قضايا علم الاجتماع المعاصر . دار المعارف . الإسكندرية . د.ط. . ص : 409
9. عبد اللطيف عبادة . إجتماعية المعرفة الفلسفية . المؤسسة الوطنية للكتاب . ط1. الجزائر : 1984. ص : 111.
10. المرجع نفسه . ص : 112.
11. مجموعة من المؤلفين . دفاتر فلسفية . المرجع السابق . ص : 14.
12. Lucien Goldman . Le Dieu Cachée. Edition. GALLIMARD. Paris : 1983. P : 25.
13. Ibid. p : 26.
14. Ibid. p : 27.
15. جون مايك بيوني . فكر غرامشي السياسي . ترجمة : جورج طرابشي . دار الطليعة . بيروت:1975. ص : 182.
16. حميد لحميداني . النقد الروائي و الإيديولوجيا . المركز الثقافي العربي . ط1 . بيروت : 1991. ص : 23.
17. عبد الله العروي . مفهوم الإيديولوجيا . المركز الثقافي العربي . المغرب : 1993. ص : 13.
18. المرجع نفسه . ص : 13.
19. المرجع نفسه . ص : 14.
20. المرجع نفسه . ص : 13.
21. مجموعة من المؤلفين . دفاتر فلسفية . المرجع السابق . ص : 20.